ولكن كونوا ربانيين

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربنا ويرضى، فله الحمد بالإسلام، وله الحمد بالإيمان، وله الحمد بالقرآن، وله الحمد حتى يرضى، وله الحمد إذا رضي، وله الحمد بعد الرضا -جل وعلا- هو أهل التقوى، وأهل المغفرة.

وأصلي وأسلم صلاة وتسليماً دائمين إلى يوم الدين على نبيه ومصطفاه من خلقه، نبينا محمد ﷺ النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعد .. فعنوان هذه الرسالة(١) جزءٌ من آية من سورة آل عمران: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

(١) أصل هذه الرسالة محاضرة ألقيت ليلة الثلاثاء الســـادس من شهر صفر من السنة الثالثة عشرة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة.

ومما يحوجنا إلى تدبر هذه الآية علمنا أن من مصائب الأمة: الجهل، وأعظم منه مصيبة،العلم المؤسَّس على غير هدى ولا كتاب منير. فلابد من محاربة الجهل، ولكن لابد أيضاً أن يكون العلم الذي ندعو إليه علماً مؤسَّساً على الأصول الشرعية الصحيحة .. علماً مقرِّباً إلى الله (عز وجل).

ولا شك أن مراجعة الـــمسيرة، وتصحيح الخطأ، والدعوة إلى التوازن، من أهم المقاصد التي يحرص عليها الصالحون والـــمُصلحون، فنحن نعلم أن الجاهل قد يَقْبَلُ التعليم، لكن الذي يرى نفسه عالماً قد يكون من الصعب أن يتقبل من غيره، ولذا فإننا سنقف من خلال تدبر هذه الآية على صفات العلماء الربانيين الذين يعلمون الكتاب، ويربون الناس ويهدون إلى الخير، وهي وقفات قصيره ولكنها كاشفة لحال هذه الزمرة الخيرة من معلمي الناس الخير، جعلنا الله من العلماء الربانيين والهداة المهتدين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

□ **تمهيد**

تفسير الآية:

في هذه الآية الكريمة الحديث عن صنف من العلماء، وصفهم الله (عز وجل) بأنهم (رَبَّانِيُّونَ). ومعنى الآية: أن الله (تعالى) نفى أن يكون لأحد من البشر -نبياً أو رسولاً- يمنحه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقوم هذا النبي ليقول للناس كونوا عباداً لي، فالنبي لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه، وإنما يدعوهم إلى الله، فيقول للناس: ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾، لا يأمرهم بغير ذلك، فلا يأمرهم بعبادة نفسه، ولا يأمرهم أيضاً بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله عز وجل، وكيف يأمرهم بالكفر وهو إنما جاء وبُعِثَ بالإسلام؟

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾، أي حكماء فقهاء، كما ذكره ابن جرير عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، وغيره من السلف.

وقيل: ﴿ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾، أي حكماء أتقياء، قاله سعيد بن جبير رحمه الله.

وقيل: هم الفقهاء العلماء، قاله مجاهد، والضحاك.

وقيل: الربانيون الذين يرُبُّون الناس، أي يلوهم.

قال ابن جرير الطبري: "لما كان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين، يُرَبِّي الناس بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعاً يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله (عز وجل): ﴿ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾" ا.هـــ.

فالربانيون إذن هم عماد الناس في الفقه والعلم، وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: "وهم فوق الأحبار، لأن الأحبار هم العلماء، والرباني: الجامع إلى العلم والفقه: البصر بالسياسة، والتدبير، والقيام بأعمال الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم." ا.هـــ.

قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله: "وهو من أجود ما قرأت في معنى "رباني"، وهو من أحسن التوجيه في فهم معاني العربية والبصر بمعاني كتاب الله." ا.هـــ.

وبالتأمل في الآية، والنظر في كلام أهل العلم عليها يتضح

أن هؤلاء الربانيين جمعوا صفات أهَّلتهم لهذه المنـــزلة، نستعرضها في المباحث التالية:

الصفة الأولى

العلم

ا وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ، هكذا قرأها جمهور قراء الحجاز وبعض البصريين، **(تَعْلَمُونَ)** بفتح التاء، يعني: بعلمكم الكتاب. وقرأها عامة الكوفيين **(تُعلِّمون)** بضم التاء، أي بتعليمكم الناس الكتاب، قال ابن عيينة: "ما علَّموه حتى علِموه."

إذن فهم علماء، وهذه من أخص صفاتهم، أنهم أقبلوا على علم الشريعة، علم الكتاب والسنة، فرفعهم الله (تعالى) به. قال تعالى: ا يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال (سبحانه) : ا شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فَقَرَنَ أولي العلم مع ملائكته، ومع ذاته المقدسة، وأشهدهم على ذلك، فدل على علو قدرهم.

وقال (عز وجل): ا فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

إنهم هم العلماء .. والعلم حياة، ولهذا قال الشاعر:

أَخُوُ العِلْمِ حَيٌ خَالِدٌ بَعْــــــدَ مَوْته
وَأَوْصالُهُ تَحْـــتَ التُّراب رَمِيمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهُوَ ماشٍ عَلَى الثَّرى
يُظَنُّ مِنَ الأَحيـــاءِ وهو عَدِيمُ

وقال آخر:

وَ فِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأَهْله
وَأَجْسامُهُمْ قَبْـــلَ القُبورِ قُبُورُ
وَأَرْواحُهُمْ في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ
وَلَيْسَ لَهُمْ قَبْـــلَ النُّشورِ نُشُورُ

فالجُهَّال أمواتٌ غير أحياء بجهلهم، ولو كانت أسماؤهم على كل لسان. فأنت اليوم -مثلاً- لو سألناك عن أعظم عالِم في القرن السادس الهجري وأوائل السابع، لقلت: شيخ الإسلام ابن تيمية، فأصبح يعرفه الكبير والصغير، لكن لو سألناك -مثلاً- من هم تجار ذلك القرن ؟ ومن هم قواد الجيش ؟ ومن هم أصحاب السلطة والجاه ؟ فإنك لن تعرفهم أو لن تعرف الكثير منهم، لكن من الذي لا يعرف ابن تيمية ؟ هذا الذي كلما تقدم الزمن زادت

شهرته ومكانته، حتى إن مكانته اليوم - عند المسلمين- أعظم بكثيرٍ من مكانته يوم كان حياً يتحرك بينهم، ففي ذلك الوقت كان خصومه كثير، حاربوه وكادوا له، وسجنوه حتى مات في السجن(رحمه الله)، لكن اليوم أبى الله (عز وجل) إلا أن يظهر حقَّه على باطلهم، وماتوا وبقي ابن تيمية حياً.

يا رُبَّ حيٍّ رُخامُ القَبْرِ مَسْكَنُهُ
وَرُبَّ مَيْتٍ عَلَى أَقْدامِهِ انْتَصَبَا

والغريب أن العلم الشرعي -بالذات- على رغم هذه المكانة، لا يختاره إلا القليل، لأن أمام طلبه عقباتٌ تنقصمُ لها الظهورَ، وتُدَقُّ لها الأعناقُ. والعجيب أيضاً أن العالِم -مع كونه محل إعجاب الناس وحفاوتهم- فهو محل عتبهم فيما قد ينسبونه إليه من تقصير، أو يظنونه فيه من قول أو فعل غير مرضي، فيَعُدُّون عليه أخطاءه، ويحصون زلاته، ويطالبونه بما لا يطالَب به غيره، وهذا من تبعات هذا المقام في الناس.

إذن لابدَّ من الدعوة إلى العلم؛ فالعلم خيرٌ كله، وهو سبب تميز ورفعة، حتى إن الله فضل الكلاب المعلَّمة فقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المائدة:٤]، فالكلب المعلَّم يتميز في الصيد عن غير المعلَّم، فكيف بالإنسان الذي فضله الله (تعالى) واختاره واصطفاه؟! قال (تعالى): ا وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[الإسراء:٧٠].

* * *

الصفة الثانية

الاتباع

ليس المراد بالعلم أي علم، فإن العلوم قد خالطتها أهواء ومقالات كثيرة، وشاب صفاءها الأول كدر من أوشاب علقت وألحقت بها، ولذا فإن المراد بالعلم علم الكتاب! ولهذا قال تعالى: ا وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ، أي الكتاب المنــزَّل من الله (تعالى) على رسله وأنبيائه (عليهم السلام). فالمقصود بالعلم، هو العلم الشرعي المقتبس من الكتاب والسنة، قال النبي ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد وغيرهما بسند صحيح: "**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**"(١). فالعلم: إما آيةٌ محكمةٌ، أو حديثٌ صحيحٌ، أو إجماعٌ قائم كما قيل:

العلمُ: قـــالَ اللهُ، قالَ رســـولُهُ   قالَ الصَّحابةُ ، لَيسَ بالتَّمْوِيهِ

مَا العلمُ نصبُكَ للخلافِ سفاهَةً   بيـــنَ الرَّسُولِ وبينَ رأيِ فقيهِ

---

(١)أخرجه الإمام أحمد (١٦٥٤٦).

وقيل :

العلمُ: قالَ اللهُ، قـــالَ رســـولُهُ قالَ الصَّحابةُ هُم أُولو العِرفَانِ

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله (تعالى): "العلم النافع من هذه العلوم كلها ضبطُ نصوصِ الكتاب والسنة، وفهمُ معانيها، والتقيُّدُ في ذلكِ بالمأثور". وهذا كلام قصيرٌ يغني عن كثير؛ فالعلوم كثيرة عند الناس، يحتار المرء بينها، بأيها يبدأ، وأيها يختار، فنقول: عليك بعلم الكتاب، وعلم السنة، فلا تأتي لنا بمعنى لم تُسْبَق إليه، كما قال الإمام أحمد رحمه الله: "لا تقل في مسألةٍ ليس لك فيها إمام".

ونقول الكتاب والسنة، لأن الرسول ﷺ كان شارحاً ومفسِّراً للقرآن بقوله وفعله؛ فأما بقوله: فإن السنة تبين القرآن، وتفصل مجمله، وتوضح معانيه، وأما بفعله: فقد سُئِلت عائشة رضي الله عنها -كما في صحيح مسلم- عن خُلُـــق النبي ﷺ فقالت للسائل: **"ألست تقرأ القرآن؟"** قال: بلـــى، قالت: **"فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن"**[(١)]. فأفعاله ﷺ كانت تفسيراً

(١) أخرجه مسلم (١٢٣٣)، وأحمد (٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤٦٢٩).

للقرآن، ولهذا وصفه بعضهم بأنه كان قرآناً يدبُّ على وجه الأرض، وهذه الكلمة -وإن كان فيها تسامحٌ ومجاز- إلا أنها تعبير عن أخــــلاق الرسول ﷺ، وأفعاله، وأقواله.

وهذا هو الفقه حقاً .. القرآنُ والسنةُ وفهمُ معانيهما، وأما أقوال الرجال، فلا تعدو أن تكون تفسيراً للقرآن، وتفسيراً للحديث، ولا ينبغي أن يشتغل الإنسان بها إلا بقدر ما تكون بياناً لهذا أو ذاك.

ولهذا لما تشاغل الناس بأقوال الرجال ظهر مصطلح أهل الفقه، وأهل الحديث، وتميَّزا، والواقع أنهما شيءٌ واحد؛ ما الفقه إلا علمُ الكتاب والسنة حفظاً، وفهماً، وعلماً، وعملاً، ولذلك أنكر الأئمة كابن الجوزي والخطّابي وغيرهم التفريق بين أهل الفقه وأهــــل الحديث، بل هما شيء واحد.

ولم يعتبر العلماء رحمهم الله المقلِّد تقليداً محضاً عالماً، حتى قال ابن عبد البر: "أجمعوا على أن المقلِّد لا يُعَدُّ من العلماء"، وقال الإمام ابن القيّم رحمه الله: "العلم هو المعرفة الحاصلة بالدليل"، والدليل: آية، أو حديث، أو إجماع، فهذا هو العلم. أما كونك سمعتَ فلاناً يفتي بكذا، وفلاناً يقول كذا، فهذا لا يُعدُّ

علماً، وإنما هو تقليد قد يُعذر به الجاهل الذي لا يستطيع إلا التقليد، أما طالب العلم، فلا.

الصفة الثالثة

الإخلاص والنيّة

يقول الرسول ﷺ في حديث عمر –رضي الله عنه– المتفق عليه: "**إنَّما الأعمال بالنيات**"(١)، ويقول أيضاً في الحديث الآخر المتفق عليه عن ابن عباس –رضي الله عنهما– وغيره: "**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية**"(٢)، أي يعبد الله (تعالى) بالنية الصالحة، قال تعالى: ا مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود:١٥]، وقال تعالى: ا مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء:١٨]. ويقول الزهري –وهو من خيار التابعين–: "ما عُبدَ الله بشيءٍ أفضلَ من العلم"، إذن وأنت تتناول العلم حفظاً، أو دراسةً، أو تأليفاً، أو تعليماً، فأنت تعبد الله (تعالى) بهذا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩ ، ٤٦٨٢ ، ٦١٩٥ ، ٦٤٣٩)، ومسلم (٣٥٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٧٥ ، ٢٦١٣ ، ٢٦١٠ ، ٣٩٦٩)، ومسلم (٣٤٦٨).

ويقول سفيان الثوري: "لا أعلم بعد النُّبوة أفضل من العلم"، لأن العالم هو وريث النبي، والأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورَّثوا العلم. جاء أبو هريرة رضي الله عنه إلى أهل السوق و هم يتبايعون، فقال: "أنتم هاهنا وميراث النبي ﷺ يُقسَم في المسجد؟!" فتركوا بضائعهم، وذهبوا يتراكضون إلى المسجد، فدخلوا، فما وجدوا إلا حلقةً هنا تعلِّم التفسير، وأخرى تعلِّم الحديث، فرجعوا وقالوا: يا أبا هريرة -غفر الله لك- ما رأينا شيئاً!، قال: أوَ ذهبتم؟ قالوا: نعم، قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يعلِّمونَ القرآن، وقوماً يعلِّمون التفسير، وقوماً يعلِّمون الحديث! قال: وهل ميراثُ رسول الله ﷺ إلا هذا؟!".

ويقول ابن وهب - وهو من تلاميذ الإمام مالك-: "كنتُ عند مالك وقد نشر كتبه يقرأ ويعلِّم، فأذَّن المؤذِّن، فذهبت أجمع هذه الكتب -يريد أن يقوم للصلاة-، فقال الإمام مالك: على رِسْلِك! ترفَّق! ليس الذي تقوم إليه -يعني من التنفل قبل الفريضة- بأفضل مما تقوم عنه، إذا صحَّت النية".

إذن فالعلم عبادة. ولابد لطالبِ العلم -وهو يتناول العلم-

من أن يشعر بأنه يتعبَّد الله تعالى، ويتقرَّب إليه بالتعرُّف على حكمه في المسائل، والتعرُّفِ إليه جلَّ وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتعرُّف إلى أنبيائه بمعرفتهم، ومعرفة حقوقهم، وما أشبه ذلك من ألوان العلم وصنوفه.

وهذا الوصف -وصف الإخلاص- هو من أخص معاني الربانية، أي إرادة وجه الرب تبارك وتعالى، فيما يأتي الإنسان ويذر، وبها يبارك الله تعالى في العلم فيثمر العلم وينفع. وأنت تجد الذين نفع الله تعالى بعلمهم ليسوا بالضرورة هم أذكى الناس، ولا أكبرهم عقولاً، ولا أكثرهم علماً أيضاً، ولكن بارك الله (تعالى) في علمهم، ونفع به، لِماَ كان فيه من الإخلاص. وهناك آخرون عندهم علم غزير، ولكن لا روح فيه، ولا إيمان، ولا إخلاص، فلم يبارك الله (تعالى) فيه، فقلَّ المنتفعون به.

* * *

الصفة الرابعة

خلق العلم وأدبه

وذلك بالسَّمْت، والوقارِ غير المتكلَّف، والقدوة في ذلك بالرسولﷺ حيث كان أعظم العلماء على الإطلاق، ومع ذلك إذا وجدْتَ هديه، وأدبه، ومعاملته للناس، تجد أمراً يعجز عنه الآخرون، وهذا من خصائصه ﷺ التي ميَّزه الله (تعالى) بها.

ففي مجال العلم، فالمنتهى إلى سنته، وما بلَّغه عن ربه الذي علمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً؛ فهو إمام البشرية، ومفتيها، ومعلمها، وهاديها، ومع ذلك .. تجده أيضاً متواضعاً مع أصحابه، يمازحهم، ويضاحكهم، ويأخذ معهم، حتى ربما تكلموا بأمر الجاهلية فيضحكون، ويتبسم ﷺ [1].

فكان ﷺ سهلاً قريباً إليهم موطأ الأكناف لهم، وسعهم جميعاً حسن خلقه، وسعة صدره وهكذا الشأن في العلماء الربانيين يرثون من النبي ﷺ قدراً من هذا الخلق العظيم يسعون به الناس ويتألفونهم، ويلقونهم بالبشر واليسر ومحاسن الأخلاق.

---

(1) أخرجه أحمد ، رقم (٢٠٨١٠) و (٢٠٨٥٣) والترمذي (٢٨٥٠) من حديث جابر بن سمرة بسند حسن .

الصفة الخامسة

مخالطةُ الناس بالحسنى

من الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها الربانيون مخالطة الناس بالحسنى؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي تعلِّمونه الناس، وهذا لا يكون إلا بمخالطة الناس بالخلق الحسن، وتألفهم على الحق، وحسن التأتي معهم.

فلابد للعالم من مخالطة الناس وتحمل تبعة هذه المخالطة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبـــي ﷺ قال: **"المؤمن الذي يخالط الناس ويصبرُ على أذاهم خيرٌ من الذي لا يخالط النَّاسَ ولا يصبر على أذاهم"**[1].

إذن لابد من مخالطة الناس مخالطة فيها اقتصاد، فيعطيهم قدراً من وقته، لا يجور على واجباته الأخرى، وإنما يخصِّص للناس وقتاً من أوقاته يعطيهم فيه مما أعطاه الله (تعالى)، ويفرغ فيه لأمورهم، وهمومهم، وشؤونهم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٣١)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٤٧٨٠ ، ٢٢٠١٩).

ومن عجيب وبديع ما قاله الإمام ابن القيم رحمه الله أنه قَسَّم الناس في المخالطة إلى أربعة أصناف، قال: " فمن النَّاس مَن مخالطته كالغذاء، وهذا هو العالم الربَّاني الذي تخالطه لا لتضيع عليه وقته، ولكن لتستفيد من علمه، الثاني: مَن مخالطته كالدواء، إنما تتعاطاه عند الحاجة إليه، وهذا هو الإنسان الذي تستفيد منه في أمر معاشك، ومن الناس مَن مخالطته كالداء، والداء كما تعلم أنواع، منها مرضٌ عضالٌ لا يُشفىَ منه الإنسان، ومنها أمراض كوجع الضرس، بمجرد ما تقلع الضرس يزول المرض، وهذا مثل الإنسان الذي مخالطته تؤذيك بسيئ القول، فإذا غادرته زال الألم، فالضرس كذلك إذا قلعته زال الألم، ومن الأمراض الحمَّى، التي لا تكاد تفارق الإنسان، ومن ذلك -كما ذُكر- مخالطة الإنسان الثقيل الذي لا هو بالذي يتكلم فيفيد، ولا بالذي يسكت فيستفيد، ومن الناس مَن مخالطته هي الموتُ بعينه، وهو الإنسان الذي يضرُّك في دينك إما بضلالة أو ببدعة".

إذن العالم الربَّاني ليست مهمته التعامل مع الكتب فقط، فتلك وظيفة سهلة، ولكن مهمته قيادة الناس إلى ربهم، وتوجيههم، ومشاركتهم آلامهم، ومشاكلهم، وأفراحهم، وأتراحهم، وأن يكون قريباً من نفوسهم وقلوبهم.

- **ثغرات يجب أن يقف عليها العلماء:**

ولا يجوز أن تخلو الساحة من العلماء العالِمين العاملين المخلصين، لأن خلوَّها أتاح الفرصة لآخرين لهم وجهات سوء، ونحل ضلال أن يتبنوا قضايا الناس وينتدبوا لمشاكلهم، فهناك الذين رفعوا يوماً من الأيام لواءَ الدفاع عن المرأة، أو ما يسمونه "تحرير المرأة"، فأفسدوا نساء المسلمين باسم الدفاع عن حقوقهن! فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن المرأة العلماء العاملون المخلصون، فيدافعون عن المرأة ضد كل ظلم أو ضيم يقع عليها، دفاعاً بالشرع، لا بالهوى، ويكسبون المرأة إلى صف الإسلام والمسلمين؟

وهناك من تبنوا قضايا الأطفال والنشء، وأعدوا لهم البرامج والكتب وغير ذلك، فربوهم على غير هدي من الله، فلماذا لا يتولى أمر الدفاع عن قضايا الطفل العلماء العاملون المخلصون، أو من يلوذ بهم، ويسمع كلمتهم، حتى يربوا الأطفال على المنهج الصحيح، منهج الكتاب والسنة؟!

وهناك الذين ادعوا أنهم ينادون بتصحيح أوضاع العمال، والدفاع عنهم، ورفعوا راية: "يا عُمَّال العالَم اتَّحِدوا"، فَضَلُّوا

وأَضَلُّوا. ولا شك أن العمال لن يجدوا من يدافع عنهم أصدق لهجةً، وأصح منهجاً، من حملة الكتاب والسنة، لو تصدَّوا لهذا، واهتموا به، ودافعوا عن حقوق العمال بالحقِّ لا بالباطل.

هناك الذين طالبوا بتحسين الأوضاع المعيشية للناس، فتبعهم في ذلك الفقراء، فإذا هم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؛ لم يغنوا الفقراء، ولكن أفقروا الأغنياء، وجعلوا اشتراكية الناس في الفقر .. فلماذا لا يكون العلماء الربانيون هم المدافعون المتولون لشؤون الناس من الفقراء والعمال والمظلومين وغيرهم؟

ولماذا يذهب الأشرار بمجتمعات المسلمين، ويبقى العالم منعزلاً في بيته، أو مكتبته، لا يدري ما الناس عليه من خيرٍ أو شرٍّ، ولا يدري الناس أيضاً هذه العلوم التي يتعاطاها أي شيء تكون؟ بل بلغ الأمر أنه في وقت من الأوقات كانت بعض وسائل الإعلام تتناول العالم بالسخرية، فتظهر هذه السخرية في التلفاز، أو في كاريكاتير، ينشر في جريدة، فلا يجد العالم مَن يغضب له، لأنه ترك مجال المجتمعات للأشرار!

إن ملايين النَّاس في كل بلاد الإسلام عندهم عاطفةٌ دينيةٌ، ولكنها تحتاج إلى بعث، وإثارة، وتحريك، والذي يستطيع ذلك

هو العالم الذي يتكلم فيسمع الناس، وذلك متى أقام الجسور بينه وبينهم. إذن لا بد من المخالطة على منهاج النبوة.

الصفة السادسة

العزة بهذا العلم والترفع به عن الأعراض الدنيوية

ولهذا قال الله (عز وجل) في الآية نفسها: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فالذي أوتي الكتاب، وأوتي الحكم، وأوتي النبوة، لا ينظر إلى الدنيا وما فيها من مطامع يتهالك عليها الناس -وأعظمها فتكاً حب الجاه، وحب المال-، بل هو غني عن ذلك كله بما آتاه الله من العلم والحكمة.

خُذُوا كُلَّ دُنْيَاكُمْ وَاتْرُكُوا ... فُؤَادي حُرّاً طَليقاً حَبيباً
فَإِنِّيَ أَعْظَمُكُمْ ثَـــرْوَةً ... وَإِنْ خِلتُموني وَحيداً سَليبا

كان ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "ما يصنع أعدائي بي؛ سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة"!!

والعزُّ بن عبد السلام لما قيل له قَبِّل يد السلطان من أجل أن يسامحك ويعفو عنك، تبسم، وقال: "مساكين! أنتم في وادٍ، وأنا

في وادٍ! أنا ما أرضى أن يُقَبِّلَ السلطان يدي، فكيف أقبِّل يده؟!"

فالذي أوتي الكتاب، وأوتي العلم، وأوتي الحكم -يعني الحكمة، والفهم عن الله، وعن رسول الله ﷺ- يترفَّعُ عن أعراض الدنيا وسفاسفها.

ثم إن الله (تعالى) يقول: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾، أي منسوبين إلى الرب. والربانيون هم من أهل الآخرة، قد يملكون الدنيا بمالٍ أو غيره، ولكنها عندهم مثل الفراش الذي يقعد عليه، ومثل الحمار الذي يركبه، يستخدمه ولا يخدمه، أي يستخدمون الدنيا ولا يخدمونها، فهم ليسوا عبيداً لها، ولهذا ازدروا الدنيا ورأوا أنها ليست أهلاً لأن يريقوا شرفهم من أجلها.

هذا هو الشافعي يقول:

وَمَنْ يَذُقْ الدُّنيا فَإِنِّي طَعِمْتُها ... وَسيقَ إِلَيْنا عَذْبُها وَ عَذابُها
فَمَا هِيَ إِلا جِيفَةٌ مُسْتَحِيـــلَةٌ ... عَلَيْها كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذابُها
فَإِنْ تجتنبها كنتَ سِلْماً لأهلِها ... وإن تجتذبها نازعتكَ كلابُها

هذه العزة أيضاً والترفع، تكسب الإنسان هيبةً عند العامَّة والخاصة، لأنهم يعرفون علوَّ همَّة هذا الإنسان، ويعرفون أنه من

الصعب أن يُصطاد بطمع دنيوي.

ومن القصائد المعروفة المشهورة التي تساق في هذا المجال، قصيدة الإمام القاضي الجرجاني -وهي قصيدة طويلة- يقول فيها:

يقولونَ لـــي فيكَ انقباضٌ وإنَّـــما
رأوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجَمَا
أرى الناسَ مَن داناهم هان عندَهُم
و من أكـــرمَتْه عزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
و لْمْ أقضِ حَقَّ العلمِ إن كانَ كُلَّمَا
بَدَا طَمَـــعٌ صـــيَّرته لِيَ ســـلَّمَا
أأشقَى بهِ غَرْسَـــاً وأَجْنيه ذلَّـــةً؟
إذَنْ فاتِّبَاعُ الَجهْلِ قَد كَانَ أَحْزَمَا!
وإنِّي إذا مَا فَاتَنِي الأمرُ لم أَبـــت
أقـــلِّبُ كَفِّـــي إثـــرَهُ مُـــتَنَدِّمَا
إذا قيلَ هذا مَنهلٌ قـــلتُ قَد أَرَى
و لكنَّ نَفْسَ الـــحُرِّ تحتَمِلُ الظَّمَا
و لم أبتَذِل في خِدمَةِ العلْمِ مُهجَتي
لأَخدمَ من لاقَيتُ ، لَكن لأُخْدَمَا
ولَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانوهُ صَانَهَم
و لَو عَظَّموهُ في النُّـــفُوسِ لَعُظِّمَا

ولكن أهانوه فهان ودنّسوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

الصفة السابعة

الحكمة

وقد قال ابن عبَّاس كما روى البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب العلم في تفسير قوله تعالى: ا ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ ، قال: "أي حكماء فقهاء". وقال البخاري: "ويقال: الربَّاني الذي يربِّي بصغـــار العلم قبل كباره".

- **حكمة العالِم الرباني :**

فالعالم الرباني حكيمٌ في علمه يضع العلم في موضعه، ولا يصرف العلم لمن ليسوا له بأهل؛ فمن الحكمة ألا يُقدِّمَ العلم لمن لا يناسبه، فمثلاً عامة الناس يحتاجون إلى حكمةٍ في إيصال العلم الذي يجب أن يتعلموه، فيسهل وييسر العلم الشرعي لهم حتى يمكن أن يصل إلى العوام من الرجال، والنساء، والكبار، والصغار، وغير المتخصصين، وتسهيله من خلال دروس للعامَّة، وكتيبات، وأشرطة، بحيث يكون العلم الشرعي متاحاً لكل إنسان يريد أن يتعلم، بالتسهيل، والتيسير، وبعبارات لبقة، فهذا لابد منه.

ومن الحكمة أيضاً ألا تصدم الناس بما هو أكبر من عقولهم، فيكون سبباً في ردهم وتكذيبهم، وفي الأثر عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: "حاطبوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟!".

يقول الغزالي في إحياء علوم الدين: "كِلْ لكلِّ عبد بمعيار عقله، وزِن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه -أي من قوله وإنكاره- وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار".

وكم من إنسان خُطِّئ وبُدِّع وربما ضُلِّل وهو على حق، لأنه تكلم في وسط قوم لا تتسع عقولهم لما قال، أو لأن هذا الكلام بلغ إليهم من غير طريقه، فخطَّأوه وهم المخطئون، وضلَّلوه وهم الضالُّون.

ومن الحكمةِ أن يبدأ بالأهم قبل المهم، فيشتغل بالعلوم الضرورية قبل العلوم التحسينية، فالعلم الذي يُضطَرُّ إليه اليوم، ويُخشى أن يفوت قبل أن يتعلمه، يقدم على علم يحتاجه فيما بعد، والعلم الذي يحتاجه، ليُقَدِّمه على بعض الأشياء التي هي من باب الكمال، ولكنه قد لا يحتاج إليها.

وكذلك لابد أن يكون حكيماً في عمله، فمثلاً ليس مناسباً أن يعمل أمام الناس عملاً هو يعرف أنه مباح، لكن الناس يستنكرونه، ويستكثرونه منه، فعليه أن يُسرَّ، لئلا يراه الناس فيستغربونه، ويستنكرونه، والدليل على ذلك ترك النبي ﷺ ما كان يجب عمله من هدم الكعبة وبنائها على قواعد إبراهيم، وذلك لحدثان قريش بالكفر، وخوفه أن تنكر ذلك قلوبهم.

ومن الحكمة أيضاً أن يكون حكيماً في تعليمه، فيعطي كـــل أحد ما يستحق، ويخصَّ بعض الناس بالعلم الذي يناسبهم، ويبدأ بصغار العلم قبل كباره، ويتدرج في التعليم إلى غير ذلك مما سوف يأتي.

* * *

الصفة الثامنة

هضم الذات

أي التواضع ومعرفة قدر النفس، فلا ينتصر لنفسه ولا يؤذي غيره بقول أو فعل، ولا يرد الحق إذا عرفه، ولا يشتغل بالناس. يقول ابن دقيق العيد لرجلٍ وقد رآه يطلب العلم فأعجبه: "أنت رجل فاضل، والسعيد من تموت سيئاته بموته، فلا تهجُوَنَّ أحداً"، قال: فما تكلمتُ في أحدٍ قط.

فليس من صفة العالم الرباني الخصومة واللجاج في كل شيء، ولغير سبب؛ ولهذا نفى الله (عز وجل) في هذه الآية عن الأنبياء والربانيين أنهم يدْعُون الناس إلى أنفسهم، فتضمن ذلك أنَّهم لا يغضبون لحظوظهم الدنيوية، ولا يسعون إلى رفعة أنفسهم على حساب الآخرين مثلاً، ولا يغضبون؛ لأن فلاناً لم يلتفت إليهم، أو لم يوقرهم أو نحو ذلك.

إنما غضبهم للحق، وحتى غضبهم للحق هو غضب يتبعه حرص على التصحيح؛ فهذا الإنسان الذي رأيت أنه أخطأ، عامله بالحسنى رجاء أن يعود إلى الحق، فمن غضبك للحق ألا

تظهر غضبك، بل أظهِر له اللين تأليفاً لقلبه، فإن رأيت أن عنده إمكانية القبول، والأخذ والرَّد، فلا تغضب عليه، وإن رأيت أنه مصِرٌّ، ومجاهرٌ، ومعاندٌ للحق، فتعامل هذه الحالة بما يناسبها ولكل مقام مقال.

يقول الجاحظ: "وأنا أحذِّرُك من اللّجاج، فإنه لا يكون إلا من خلل القوة، ومن نقصان قد دخل على التمكين، واللَّجوج في معــــنى المغلوب". نعم! هذا كلام علمي رصين! اللَّجوج الذي تجده يرفع الصوت ويصرخ وينفعل، هو المغلوب! أما الإنسان الواثق الغالب فتجده قويًّاً بالحُجَّة، ولو كان صوتُه هادئاً، فلا يلتفت إلى هذه الأعاصير والعواصف التي تُثار هنا وهناك. فهو لا يختار الرد مثلاً من أجل أن يريح نفسه، أو يشبع غروره، أو يُظهر الغلبة على خصمه، فهذا ليس من شيمة العالم الرباني.

يقول الإمام ابن قتيبة ناصحاً طالب العلم في كتاب (**عيون الأخبار**) : "أحب أن تجري على عادة السلف الصالحين في إرسال النفس على السجية، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنـــزَّهتَ، وسلبوا وتورَّعْتَ". يعني لا تحس أنك كـــــامل وهم ناقصون، أو ورع وهــــم مخلِّطون،

أو متنـــزه وهم قد اقترفوا بعض المعاصي ..، إياك والاستعلاء، إياك والكبـــــر، وهو"**بطر الحق، وغمط النـــاس**" كما عـــرَّفـــه النبي ﷺ(1).

تَواضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِناظِرٍ
عَلَى طَبَقَاتِ الـــماءِ وَهُوَ رَفِيعُ
وَلا تَكُ كالدُّخَّانِ يَعلُو مَكانَـــهُ
عَلى طَبَقَـــاتِ الجَوِّ وَهُوَ وَضِيعُ

ومن التواضعِ الإقرار بالجهلِ والاستمرار في طلب العلم، ولهـــذا قال الله تعالى: ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، أي عالم ويَدْرُس. وقد سبق أن ذكرت أن في الآية قراءتين، الأولى: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾، والقراءة الثانية: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ أي تعلّمون غيركم.إذن (**تُعَلّمون**)، وأيضاً (**تَدْرُسُونَ**)، فأنت تجده شيخاً في حلقةٍ، وتلميذاً في حلقةٍ أخرى!

وقد كان الإمامُ أحمدُ يسعى إلى حلق العلم في أحد شوارع بغداد، فقال له أحدهم: "يا أبا عبد الله! إلى متى؟" قال: "إلى الموت"! وفي قصة أخرى قيل له فقال: "مع المحبرة إلى المقبرة!".

(1) أخرجه مسلم (١٣١).

فهم يتعلَّمونَ ويُعلِّمُونَ حتى الموت، ولا يرون أنهم قد وصلوا إلى مرحلة يستغنون بها عن طلب العلم، فالله (تعالى) يقول: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] ، والعلم عبادة، بل هو من أعظم العبادات، إذن من معاني الآية: واطلب العلم طاعة لله حتى يأتيك اليقين، لكن العلم النافع الموصل إلى الدار الآخرة.

* * *

الصفة التاسعة

العمل

بعد الكلام عن أخلاق العالم الرباني، نأتي إلى العمل. والعمل هو الثمرة، حتى إن السلف -رحمهم الله- ما كانوا يسمون الفقهَ إلا: "العلم والعمل"، كما قرر ذلك، وحرره الإمام الغزالي في "**إحياء علوم الدين**"، والإمام ابن القيِّم وغيره من أهل العلم، وساق فيه الدارمي وغيره روايات كثيرة عن السلف.

فلم يكن السلف يعرفون الفقه الذي هو القراءة في الكتب، بل يعرفون الفقيه بأنه إنسان يعلم فيعمل، ولا فاصل عندهم بين هذا وذاك، ولما سُئل بعض السلف: من أعلم أهل المدينة؟ قال: أتقاهم. ولما سُئل أيوب السختياني رحمه الله: أيهما أكثر، العلم اليوم، أم العلم عند المتقدمين من السلف؟ فقال: "الكلام اليوم أكثر، لكنَّ العلم فيمن تقدم أكثر". وهذا الكلام يصلح أن يطبق على واقعنا، فالكلام اليوم أكثر، ولكن العلم الذي وصل إلى القلب، وأثمر العمل والصدق قليل.

وقيل للإمام أحمد في مجلس ذكر فيه معروف الكرخي -وهو

من الزهاد العباد الأتقياء-: "إن معروفاً قصير العلم"، فقال الإمام أحمد: "وهل يُراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف؟!" أي لا نريد من العلم إلا النتيجة التي وصل إليها معروف، وهي العمل. وفي حادثة أخرى سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل والده وقال له: "يا أبتِ هل كان معروف معه شيء من العلم؟" قال له: "يا بني! معه رأس العلم خشية الله تعالى".

وفي حديث أبي موسى الأشعري، وهو في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: **"مثل ما بعثني الله (تعالى) به من العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ، والعشب الكثير"**،- فهذا العالِم العامِل المعلم، كالأرض الطيبة التي نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأثمر العلم عنده العمل والعبادة والدعوة والصبر- ، **"وكان منها أجادِب"** – أرض صلبة- **"أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، وزرعوا"**، -فهذا مثل إنسان عنده معرفة بالنصوص، لكن ليس عنده فقه فيها، فهو مثل الأرض التي لا تستفيد من الماء، لكنها حفظته للناس، فاستفادوا، واغترفوا منها-، **"وأصاب طائفةً أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك**

ماءاً، ولا تنبت كلأً"،- فهذا من ليس عنده معرفة، ولا عمل، ولا عبادة-، ثم قال ﷺ: **"فذلك مثل من فقه في دين الله فتعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله (تعالى) الذي أرسلت به"**(١). وقد وصفَ اللهُ تعالى أهلَ الكتاب بقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ [الجمعة:٥].

❑ العلم النافع :

إذن دونك يا أخي كلمة ينفعك الله تعالى بها، هما علمان لا يضرك ما فاتك غيرهما:

العلم الأول: علم ينفعك في الدار الآخرة، ويوصلك إلى الجنة، ويبعدك من النار، فهذا تشبث وتمسك به.

والعلمُ الثَّاني: علم ينفعك في الدنيا، إما زراعة، أو صناعة، أو طب، أو هندسة، أو غيرُ ذلك مما تنتفع به، أو تنفع به غيرك في الدنيا، فعليك أيضاً بهذا العلم بقدر ما تحتاج أنت، وبقدر ما يحتاج الناس، وإن أخلصتَ النية فأنت على خير عظيم.

(١) أخرجه البخاري (٧٧)، ومسلم (٤٢٣٢).

أما ما سوى هذا وذاك من الكلام في الناس، والخوض في أحوالهم، وقال فلان، وردَّ فلان، وأصاب فلان، وأخطأ فلان، ونحو ذلك من المخاصمة التي اقتحمها كثيرون اليوم، فلا تشغل به وقتك، ولا تصرف فيه عمرك، واعلم أنك قد تدخل الجنة وأنت لا ترى من هذا شيئاً، ولا يضرك عند الله.

اشتغل يا أخي، بعلم ينفعك في دينك، عبادة، ودعوة، أو علم ينفعك في دنياك، تجارة، أو زراعة ونحو ذلك. أما هذه الأقاويل، والأغاليط، والمسائل، والأمور، فانظر إلى أيٍّ منها، هل هو مما ينفع في الآخرة؟ فإن لم يكن، فاتركه، ولا تأسف عليه، ولا تتبعه نفسك.

أما إذا كان ينفعك في دنياك، أو في أخراك، فلا أحد يلومك على ذلك. ولهذا تجد العالم الرباني يعتني بالعلم الذي له ثمرة، فيسأل عن ثمرة هذا العلم قبل أن يتشاغل به، فلا يطرح مثل تلك الفرضيات التي ربما تقع، وربما لن تقع إلى قيام الساعة.. ولا يتشاغل بالجدل في مسائل محصورة، وقد تكون مذكورة في بعض الكتب، لكن لا يحتاج إليها الآن بحالٍ من الأحوال.

❑ خطورة الانشغال عن الأَوْلى من العلوم:

كذلك تجد أن هذا العالم الرباني الذي همه العمل بالعلم يعتني بصلب العلم قبل فروعه، ومُلَحه، وطرائفه البعيدة التي قد تخفى على بعض كبار أهل العلم. ومثل ذلك الإفراط في تتبع الكتب الجديدة وجمعها، والذي يتطور عند بعض الطلبة حتى يصبح هواية كهواية جمع الطوابع، وجمع التحف، ويصرف فيها المال، والوقت، والجهد، وبالمقابل قد لا يكون فيه أكثر من الطرفة، والملحة، والجمع. وقد يُفتن الإنسان بجمع الكتب كما يُفتن الآخر بجمع المال، ولا يستفيد منها علماً ولا عملاً، وإن كان الجمع المعتدل مطلوباً، والتخصص أيضاً في ذلك مطلـــوب.

ومثل ذلك، الأغلوطات التي نهى الرسول ﷺ عنها، وهي صعاب المسائل، فالتشاغل بها مهلكة، وإني لأعجب من أسئلة تأتيني من شباب الدعوة في بلاد إسلامية كثيرة، أتعجب من بعض هذه الأسئلة، وما فيها من التكلُّف والتعمق، والتنطع الشديد، وتجد أن معظم هذه المسائل من الأغلوطات التي نهى الله تعالى ورسوله ﷺ عنها! فكيف لم يقع السلف الصالح على هذه العلوم والأسئلة، السلف الصالحون لم يجيبوا عنها، ولا

فهموها، و لم تتهيأ لهم، حتى انبرى لها هؤلاء فكشفوها، وسألوا عنها؟! إن هذا لشيء عجاب!

وقد تجد هذا الإنسان جاهلاً ببعض الأصول الكبار، وغير متعمِّق في علوم كان يجب أن يتعمَّق فيها، وأن يفهمها، ولهذا يقول الإمام ابن الجوزيِّ رحمه الله في كتابه (**تلبيس إبليس**) : "لو اتسع العمر لم أمنع من الإيغال في العلم، غير أن العمر قصير، والعلم كثير، فالتشاغل بغير ما صح يمنع من التشاغل بما هو أهم منه، ولما تشاغل يحى بن معين، فاته من الفقه الشيء الكثير، ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثة يسئل عنها الشيخ، أمضى ستين سنة في طلب الحديث فلا يعرف عنها شيئاً". وأقول استدراكاً على ابن الجوزي : إن ما تشاغل به يحى بن معين هو مما ينفع الناس، ولكن غيره كثير تشاغل بما لا ينفع من الغرائب، والعجائب، والطرائف، التي لا يحتاج إليها، والتي تموت بموته، ولهذا قيل في عيوب بعضهم أنهم: "أبحث الناس عن صغير، وأتركهم لكبير!!". وقيل أيضاً في عيوب بعضـــهم: "أعلم الناس بما لم يكن وأجهلهم بما كان!".

ومما حكي لنا عن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–

أنه كثيراً ما تمثل بقول القائل:

وقدم الأهم إن العـــــلم جم .. فالعمر ضيف زار أو طيف ألم

إن أمم الكفر من اليهود والنصارى في بلاد الغرب اليوم تشاغلوا بالعلوم الدنيوية، فسخَّر الله لهم من هذا الكون المادة، فاستفادوا منها، وانتفعوا أيما انتفاع فغاصوا في أعماق البحار، وصعدوا إلى أجواء الفضاء، وتقدموا في ألوان العلوم، واستطاعوا أن يستفيدوا من ذلك في التسهيلات الحضارية التي انتفعوا بها هم كثيراً، وانتفع بها غيرهم، واستطاعوا أن يحفظوا مكانتهم، ويحققوا لأديانهم وعقائدهم وأفكارهم انتصارات عسكرية بسبب ما ابتكروه واخترعوه، وذلك لأنهـــم تركوا التشاغل بغيره.

وقد أصابوا من جانب، وأخطئوا من جانب، أصابوا من جانب الاشتغال بهذه العلوم الدنيوية المفيدة، وكان يجب على المسلمين أن يشتغلوا بها، ويحققوا أكثر مما حقق هؤلاء، ولكنهم أخطئوا من جانب آخر، وهو أنهم تشاغلوا عن العلوم الأخروية الموصلة إلى رضوان الله تعالى، فصدق عليهم قول الله (عز وجل):
﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

[الروم: ٧]، فهم لا نصيب لهم في الدار الآخرة، ولا خلاق، إنما نصيبهم في هذه الدنيا، أما الأمم المسلمة فأخشى أن تكون في بعض مظاهرها خسرت هذا وذاك، فهي لم تفلح في إعزاز دينها، و لم تفلح في تطوير دنياها، مع الأسف الشديد.

إذن العلم قرينه العمل، وهو ثمرته، والعلم والعمل اسمهما "الفقه"، وفي الصحيحين من حديث معاوية: **"من يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقههُ في الدِّين"**(١) وأنت في صلاتك تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦] ، وما الصراط المستقيم إلا العلم والعمل بالهدى ودين الحق.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:٨٠]، نزلت هذه الآية في أهل نجران لما قالوا: "يا محمد! هل تريدُنا أن نعبدَك؟" فالنصارى عبدوا عيسى عليه السلام. وقيل نزلت فيمن قال: "يا رسول الله! ألا نسجدُ لك؟"

(١) أخرجه البخاري (٦٩، ٢٨٨٤ ، ٥٢١٣)، ومسلم (١٧١٩ ، ١٧٢١، ٣٥٤٩).

كما يسجدُ النصارى لزعمائهم، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال: **"لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها"**(١).

فاليهود والنصارى ضلوا بترك العلم كما فعل النصارى، أو بترك العمل كما فعل اليهود، فأنت تقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني صراط العلم والعمل، ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم اليهود الذين تركوا العمل، ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي النصارى الذين تركوا العلم.

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧٩)، وابن ماجة (١٨٤٣ ، ١٨٤٣)، وأحمد (١٢١٥٣ ، ١٨٥٩١ ، ٢٠٩٨٣ ، ٢٣٣٣)، والدارمي (١٤٢٨).

الصفة العاشرة

التعليم

قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ ﴾ والتعليم مهمة الأنبياء، يُعلِّمون الناس الكتاب. والله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير، وينبغي أن تعلم أن العلم كالمال، لا يكنـــز، ولا بد أن تؤدي زكاته، ويختلف العلم عن المال في أن العلم ليس له نصاب، حتى لو لم يكن عندك من العلم إلا آية واحدة، أو حديث واحد، وجب أن تبلغها، يقول النبي ﷺ: "**بلِّغوا عني ولو آية**"[(١)]، وفي الحديث الآخر: "**نضَّر الله امرءاً سمعَ منَّا حديثاً فبلَّغَه**"[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٢)

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٠)، وأبو داود (٣١٧٥)، وابن ماجه (٢٢٨ ، ٢٣٢)، وأحمد (٣٩٤٢ ، ١٦١٥٣ ، ٢٠٦٠٨).

❑ **تعليم الربانيين :**

وللعلماء الربانيين سمات واضحة في تعليمهم منها :

أولاً: أن يكونوا ربانيين حقاً، أي يربون الناس بالعلم، ويراعون في ذلك التدرج في التعليم؛ فلا ينقلون الإنسان في طفرات متسارعة تجعله غير منضبط في علمه، وفي تعليمه.

ثانياً: أن يراعوا التربية، فليس العلم مجرد حشو الذهن بالمعلومات! فقد تجد إنساناً كالبحر في معلوماته، لكن شخصيته لم تُصَغ صياغة سليمة فيها الانضباط، والتوازن، والأدب، والتعقل، والاجتهاد، فيكون علمه حجة عليه، لأنه اغتر بهذا العلم واغتر الناس به أيضاً، لأنه إذا تكلم في المسائل أجاد، وأفاد، لكنهم ينسون أن هذا العالم لم يصحبه نور، وبصيرة، وتربية، ومراعاة للأحوال.

ثالثاً: بذل العلم للعامة بسهولة العبارة، ووضوحها، لأن المقصود ليس التقعر بالقول، وإظهار القدرة على الناس، بل المقصود تبليغ السامع، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:٤]، أي المقصود أن يصل العلم إليهم، وليس شيئاً آخر وراء ذلك.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله: "وبهذا كان السلف الصالح يعملون في تبليغ الشريعة للمؤالف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم على إثبات الأحكام التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق، وأقربها إلى عقول المخاطَبين والطالبين، من غير ترتيب متكلَّف، ولا نظم مؤلَّف، بل كانوا يرمون بالكلام على عواهنه، ولا يبالون كيف وقع الكلام في ترتيبه إذا كان سهل المأخذ قريب الملتمس".

فتراعي إذن التبسيط، والتسهيل، والتيسير، وليس من الضروري أن ترتب، وتأتي بنقاط، ومسائل، وقيل وقال، المهم أن يصل الحق إلى الناس، وبأقصر طريق، ولا يمنع أن الإنسان يخص أقواماً بمزيد من العناية، والترتيب، والتبويب، لأنهم طلبة علم مختصين، لهم عمق، ودقة في البحث، أو ما أشبه ذلك، ولهذا اختص الخطيب بضرورة تسهيل العلم للناس. ومثله من يخاطب الجماهير. قال ابن قتيبة رحمه الله: "ينبغي أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، ولا يدقق في المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويكون في الكلام إجمال وعموم يتناسب مع عقول المستمعين".

هذه بعض صفات العلماء الربانيين الهداة المهديين، جعلنا الله

منهم، وسلك بنا سبيلهم..إنه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الفهرس